PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2025) 62 (05) : 527-542
ISSN : 1553-6939

THE LITERARY PHENOMENON AND ITS RELATIONSHIP TO THE EPIDEMIC

Dr. Abderrahmane Boutera

Lecturer “A”, Arabic Language and Literature, University Center Salhi Ahmed Naama (Algeria),
E-mail: boutera@cuniv-naama.dz

Received: 12/2024 , Published: 05/2025

Abstract:

No art form in Arabic literature has received as much study and diversity, whether old or modern, as Arabic poetry. It is considered a reliable reference for the rhetorical and figurative styles of the Arabs, as well as the original source of their linguistic vocabulary and expressive methods. Moreover, Arabic poetry contains the achievements, glories, and historical events of the Arabs. It is the primary official document that has recorded the emotional and social history of the Arabs since the rise of the Arab people and the development of their intellect.

In the collection of Arabic poetry, there are many pages that have yet to be read, and they have not found ample space in the works of scholars and their research, despite their importance in revealing some hidden aspects of our Arabic poetry. One of these aspects is the depiction of diseases and epidemics, such as the plague and fever, and their diagnosis in poems with unique characteristics. These poems are rarely found in other works of poets, due to their originality in meaning, themes, delicacy in emotions and feelings, and the magnificence of their expressions and styles.

Keywords: disease, epidemics, plague, fever, diagnosis, pain, literature, poetry.

الظاهرة الأدبية وعلاقتها بالوباء

د. بوترعة عبد الرحمن

أستاذ محاضر صنف (أ)، قسم اللغة العربية وآدابها، المركز الجامعي – احمد صالحي- النعامة (الجزائر)،

البريد الالكتروني: boutera@cuniv-naama.dz

الملخص:

لم يحظ فن من فنون الأدب العربي بكثرة الدراسات وتنوعها، سواء القديمة منها أو الحديثة، مثلما حظي الشعر العربي، إذ يعد المرجع الموثوق به لأساليب العرب البلاغية والبيانية، والمصدر الأصيل لمفرداتهم اللغوية وطرقهم التعبيرية، فضلا عما يحويه الشعر العربي من مآثر العرب ومفاخرها وأحداث أيامها ووقائعها، فهو الوثيقة الرسمية الأولى التي دونت تاريخ العرب الوجداني والاجتماعي منذ بزوغ الجنس العربي ونبوغ عقليته.

ففي ديوان الشعر العربي صفحات طويلة لم تقرأ بعد، ولم تجد لها في كتب الدارسين وأبحاثهم مجالًا ومتسعًا، مع ما لها من أهمية في الكشف عن بعض الجوانب الخفية في شعرنا العربي، ومن ذلك ما قيل في وصف الأمراض، والأوبئة مثل: الطاعون،

والحمى،... وتشخيصها في قصائد وأشعار ذات خصائص نادرة المثال، قلما نجد لها نظيرًا في أشعار الشعراء، لما تتسم به من طرافة في المعاني والأغراض، ورقَّة في المشاعر والأحاسيس، وروعة في التعابير والأساليب.

الكلمات المفتاحية: المرض، الأوبئة: الطاعون، الحمى، التشخيص ، الألم ، الأدب، الشعر.

إذا علمنا أن الشعر العربي هو شاهد عدل على أن الأوبئة أهلكت الحرث والنسل وأن الطب العربي كان قد شب عن الطوق باكرًا، فإنه ينبغي علينا الاحتفاء بهذا الميدان، لما يزخر به من أبعاد إنسانية، وعواطف متدفقة، وأحاسيس نبيلة، وتجارب متباينة في مرارتها وحلاوتها.

فالطب فرع من فروع العلم، وهو بإجماع اللغويين والمتأدبين: علاج الجسم والنفس. والطبيب أو الطب (بتشديد الطاء وفتحها): هو العالم بالطب (بتشديد الطاء وكسرها)، والمتطبب: الذي يتعاطى علم الطب. وليس بطبيب حقيقي لطّبُّ مُثَلَّثة الطَّاءِ هُوَ عِلاَجُ الجِسْمِ والنَّفْس واقْتَصَرَ على الكَسْرِ في الاسْتِعْمال . والفَتْح والضَّمُّ لُغَتَان فِيهِ . وقد طَبَّ يَطُبُّ بالضَّمّ على القِيَاسِ في المُضَاعَف المُتَعَدّي ويَطِبّ بالكَسْر على الشُّذُوذ طِبّاً فهو مِمَّا جَاءَ بالوَجْهَيْن كعَلَّه يَعُلُّه وأَخَوَاته وإِنْ لم يَذْكُرُوه فِيهَا وليس هذا من زِيَادَات المُؤَلّف كما زعمه شيخُنَا بل سَبَقَه في المحكم ولِسَان العَرَب وغَيْرهما . من المجاز : الطِّبُّ بمَعْنَى الرِّفْق،والطَّبِيبُ الرَّفِيقُ

قال ابنُ الأَسْلَت

أَلاَ مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي ... أُطِبٌّ كَانَ دَاؤُكَ أَم جُنُونُ،[1]

والحقيقة أن ميدان الطب قد أفاد منه الشعراء حين يمموا ساحته أيما فائدة، فعلوا من ألفاظه، ونهلوا من أساليبه، وحاكوا في تصويرهم الأدبي صورًا طبية، وصبوا هذا كله في قوالب وأشكال فنية رائعة، تنبئ عن ثقافتهم، وروعة تجربتهم، وحرصهم على اصطياد الأفكار والصور من شتى المصادر.

ومن بين ما حوى ديوان الشعر بين أبوابه وأغراضه التي نظم الشعراء فيها قصائدهم بابا لعلم الطب خاصة الناحية التشخيصية، وتصوير الأمراض وما أصاب الأمم من الطواعين، لذا نرى شعراء كبارًا تلمع أسماؤهم في ديوان الشعر العربي طرقوا هذا الباب وتركوا لنا أشعارًا تحتاج بالفعل إلى إحكام العقل وكدّ الذهن بعيدا عن مجالات الجمال ورؤى الإلهام والخيال التي يحتفل بها الشعراء العرب، حتى قدموا أوصافا لبعض الأمراض والعلل ،لأن أعراض المرض تطغى على مشاعر المبدع، فلا يستطيع أن يتجاهلها أثناء كتابته للشعر كما خيروا الصحة وسلامة الأبدان عن الأموال وقد أصيبُ امرؤ القيس بعدوى داء الجدري وفيه يقول :

لقد طمحَ الطمَّاح من بُعْدِ أرضه * ليُلبسني من دائه ما تلبَّسا

فلو أنَّها نفسٌ تموتُ سويَّةً * ولكنها نفسٌ تُساقِطُ أنفسا.[2]

ومما قاله في مرضه بأبياتٍ مُشجيةٍ تُصوّرِ حاله وبؤس المرض

وما خلتُ تبريحَ الحياة كما أرى * تضيقُ ذِراعي أن أقومَ فألبسا

فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً * ولكنَّها نفسُ تَساقطُ أنفُسا

ولو أن نوما يُشترى لاشتريته * قليلا كتغميضِ القطا حيثُ عرَّسا

وبدَّلتُ قرحًا داميا بعد صِحَّةٍ * فيا لك من نُعمى تحوّلنَ أبؤسا.[3]

ويقول في وصفِ الجدري الذي أكلَ جسده

فإمَّا ترىْني وبي عرَّةٌ * كأني نكيبٌ من النقرسِ

وصيَّرني القَرْحُ في جُبَّةٍ * تُخَالُ لبيسًا ولم تُلبسِ

ترى أثرَ القَرْحِ في جِلده * كنقش الخواتمِ في الجرجسِ[4]

يقول الشاعرعنترة بن شداد

إِذا كانَ أَمرُ اللَهِ أَمراً يُقَدَّرُ

فَكَيفَ يَفِرُّ المَرءُ مِنهُ وَيَحذَرُ

وَمَن ذا يَرُدُّ المَوتَ أَو يَدفَعُ القَضا

وَضَربَتُهُ مَحتومَةٌ لَيسَ تَعثَرُ

لَقَد هانَ عِندي الدَهرُ لَمّا عَرَفتُهُ

وَإِنّي بِما تَأتي المُلِمّاتُ أَخبَرُ

يقول عنترة:

المال للمرء في معيشته

خيرٌ من الوالدين والولد

وإن تدم نعمةٌ عليه تجد

خيرًا من المال صحة الجسد

وما بمن نال فضل عافيةٍ

وقوت يومٍ فقرٌ إلى أحد.[5]

وقال بشار بن برد:

إني وإن كان جمع المال يعجبني

فليس يعدل عندي صحة الجسد

في المال زينٌ وفي الأولاد مكرمةٌ

والسقم ينسيك ذكر المال والولد.[6]

وما أروع قول ابن حزم عندما اعتراه المرض:

يقول لي الطبيب بغير علم ... تداو فأنت يا هذا عليل

أأكتمه ويكشفه شهيق

يلازمني وإطراق طويل؟!

ووجه شاهدات الحزن فيه

وجسم كالخيال ضَنٍ نحيل

وأثبت ما يكون المرء يومًا

بلا شك إذا صح ا لدليل[7]

ويصف المتنبي مقدم الحمى وسريانها في الجسد الذي لا يكف عن المقاومة، فالحمى تنتابه وقت النوم، وتمنعه الرقاد ولذيذ النوم، فهي تصيبه ليلا وعندما يطلع النهار وتريد مفارقته تبكي مدامعها سجاما، دلالة على ما تجده من التعرق الشديد عندما تفارقه فيقول:

المتنبي عن مرض الحمى

وزائرتي كأن بها حياء *** فليس تزور إلا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا *** فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجلد عن نفسي وعنها *** فتوسعه بأنواع السقام

إذا ما فارقتني غسلتني *** كأنا عاكفان على حرام

كأن الصبح يطردها فتجري *** مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق *** مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر *** إذا ألقاك في الكرب العظام

أبنت الدهر عندي كل بنت *** فكيف وصلت أنت من الزحام[8]

لقد أظلم مرض الجدري عيني بشار بن برد، لكن مع ابن الرومي أصبح الجدري مطلبًا جماليًّا، فلا نستغرب ذلك. بودلير كان مفتونًا بآثار الجدري على وجه حبيبته، كما تذكر غريتِشن أي هنْدِرْسن في كتابها "التاريخ الثقافي للقباحة*". يقول ابن الرومي:

عبثت به الحمى فوَرَّد جسمَهُ/ وَعَكُ الحمى وتلهُّب المحرورِ
وبدا به الجدري فهو كلؤلؤٍ/ فوق العقيق منضَّد مسطور
ونضاه بَنْثره فجاء كعصفرٍ/ قد رُشَّ رشًا في بياض حرير
الآن صرت البدر إذ حاكى لنا/ كلفَ البدور مواضعُ التجديرِ
فكخمرةٍ رُشَّت على تفاحة/ أثرٌ يلوح بخدك المجدور[9].

كان للشعراء مواقف يختلط فيها الجدّ والهزل مع الأمراض، فها هو الصاحب بن عباد يمازح صديقه أبا العلاء السعدي بعد أن أصابه الجرب

أَبا العلا يا هلال الهَزل وَالجِدِّ

كَيفَ النُجومُ الَّتي تَطلعنَ في الجلدِ

وَباطِنُ الجِسمِ غَرٌّ مِثل ظاهِرِه

وَأَنتَ تعلمُ مِما قُلتُه قَصدي[10]

أمّا الفرزدق، كعادته في الهجاء، فقد عدَّ غيره من الشعراء كمرض الجرب الذي كان يعالج بالقطران في ذلك الزمان

أنا القطران والشعراء جربى وفي القطران للجربى شفاء[11].

ذهب الخواوزمي في شكوى ما آلت إليه أموره كالضرس المنخور، فقال

وما أصبحت إلا مثل ضرسٍ تأكّل فهو موجودٌ فقيدُ
ففي تركي له داءٌ دويٌّ وفي قلعي له ألمٌ شديد[12].

تقول سوزان سونتاج في كتابها "**المرض كاستعارة**": "إنّ المرض هو الجانب المظلم من الحياة. إنّه مواطنة مرهقة، فكل شخص ولد مواطنًا في مملكة الأصحاء، وفي الوقت نفسه يُولد مواطنًا أيضًا في مملكة المرضى[13]

لكل شيء إذا ما تم نقصان كما يقول أبو البقاء الرندي في رثاء الأندلس. إنّ الصحة هي التمام الذي يخشى عليه من النقصان، هكذا كُتب على الإنسان زيارة أرض المرض بشكل مؤقت، أو دائم.

اشتبك الأدب مع المرض والأوبئة في تراثنا العربي، فلم يترك الأدب المرض والوباء على مظانهما السيئة، بل ذهب في تجميلهما بالتشبيهات والاستعارات وحسن الأسلوب والعرض، وكأنّ الأدب دواء يخفّف من وطأة المرض على المريض، فيغيّر من هول الوباء عبر وصفه، أو التأريخ له، إلى دلالة انقضاء المحنة وتحقّق النجاة .ويعدّ كتاب "بذل الماعون في فضل الطاعون" للعسقلاني الذي تناول فيه الطواعين التي فتكت بالأمة العربية والإسلامية من أشمل الكتب التي تناولت الأوبئة، فيذكر فيه فصلًا قد خصّه في وصف الطاعون ناقلًا مقامة الوردي) :النبا عن الوبا) التي يذكر فيها ما فعله الطاعون بالعالم القديم، لكن الوردي يرتفع في مقامته التاريخية الواصفة إلى جماليات الأدب، حيث ينمحي الخوف من الطاعون، لتحلّ محله متعة تذوق مقامة فيها كثير من الكنايات، وبعضًا من السخرية. وفي ذكره للمدن التي أصابها الطاعون في بلاد الشام، نستمتع باللعبة الأدبية التي تغيّاها الوردي في مقامته ذاهلين عن الخوف من الطاعون: "... ثم أمزَّ المزّة، وبرز إلى برزة. وركّب تركيب مزج في بعلبك... وأزبد على الزبداني نعشه. ورمى حمص بخلل، وصرفها مع علمه أنّ فيها ثلاث ثم طلّق الكنّة في حماة، فبردت أطراف عاصيها من حِماه

أيّها الطاعون إنّ حماة من خير البلاد ومن أعزّ حصونها

لا كنت حين شممتها فسممتها ولثمت فمها آخذًا بقرونها

دخل معرّة النعمان، فقال لها: أنت مني في أمان. حماة تكفي في تعذيبك، فلا حاجة لي بك
رأى المعرة عينًا زانها حور/ لكن حاجبها بالجور مقرون
ماذا الذي يصنعُ الطاعون في بلد/ في كل يوم له بالظلم طاعون

لقد رأى في الطاعون قدرًا من أقدار السماء، وعدّ من مات فيه شهيدًا. وقد قيل في فوائد الطاعون بأنّه يقصّر الآمال، ويحسّن الأعمال. ويحث على اليقظة من الغفلة، والتزوّد للرحلة. وممّا قاله ابن الوردي شعرًا في ذلك

فهذا يوصِّي بأولادِهِ وهذا يودِّعُ جيرانَهُ
وهذا يهيِّئُ أشغالَه وهذا يُجهِّزُ أكفانَهُ
وهذا يصالحُ أعداءَهُ وهذا يلاطف إخوانَهُ
وهذا يوسِّعُ إنفاقَهُ وهذا يخالِلُ مَنْ خانَهُ
وهذا يحبِّسُ أملاكَهُ وهذا يحرِّرُ غِلْمانَهُ
وهذا يُغيِّرُ أخلاقَهُ وهذا يعيِّر ميزانَهُ
ألا إنَّ هذا الوبا قَدْ سَبا وَقَدْ كانَ يرسلُ طوفانَهُ
فلا عاصمَ اليومَ من أمره سوى رحمةِ اللهِ سبحانَهُ[14]

لم يعفُ الطاعون عن ابن الوردي، فقال مسلمًا أمره لله قبل يومين من وفاته بالمرض

ولستُ أخافُ طاعوناً كغيري فما هوَ غيرُ إحدى الحسنيينِ
فإنْ متُّ استرحتُ من الأعادي وإنْ عشتُ اشتفتْ أذني وعيني[15]

ننتقل بعد الطاعون إلى الأمراض الفردية، وكيف تقبّلها الشعراء، فعلى الرغم من الحمى والألم إلا أنّ الشاعر ظلّ وفيًّا للشعر، ولم تختف مفاعيله بين أنّات الألم وسعير الحمى

لم يكن مرض النقرس بعيدًا عن تناوله شعريّا، فقد جاء في كتاب "شفاء الغليل في كلام العرب من الدخيل"، لشهاب الدين الخفاجي المصري، مفارقة جميلة، فمن المعروف عن النقرس أنّه داء الملوك، لكن أن يصيب الفقير المحتاج، فتلك هي الفكاهة السوداء. قال المبرد: كان الحرمازي في ناحية عمرو بن مسعدة، وكان يجري عليه، فخرج عمرو بن مسعدة إلى الشام، وتخلف الحرمازي في بغداد، فأصابه النقرس، فقال:

أقام بأرض الشّام فاختل جانبي   ومطلبه بالشام غير قريب
ولا سيّما من مفلس حلف نقرس   أمّا نقرس في مفلس بعجيب[16].

وقال آخر مكنّيًا عن ما آل إليه حاله من الغنى والقلق من الافتقار

فصرت بعد الفقر والتّهوس يخشى عليّ الحيّ داء النقرس

ولقد أشار إلى ذلك الثعالبي في تحسين القبيح وتقبيح الحسن، بأنّه من محاسن الفقر أن لا يخاف عليه، كما يخشى على الغنى من الزوال الْعَبَّاس يصف الْفضل بن سهل ذَا الرئاستين ويقدمه، ويصف علمه وَكَرمه .وَكَانَ فِيمَا حَدثنِي بِهِ أَن قَالَ :برأَ الْفضل من عِلّة كَانَ قد وجد بهَا، فَجَلَسَ للنَّاس، فهنئوه بالعافية .فَلَمَّا فرغوا من كَلَامهم قَالَ لَهُم :إِن فِي الْعِلَل نعما لَا يَنْبَغِي للعقلاء أَن يجهلوها، فَمِنْهَا تمحيص الذُّنُوب، والتعرض لثواب الصَّبْر، وإيقاظ من الْغَفْلَة، واذكار بِالنعْمَةِ فِي حَال الصِّحَّة، واستدعاء للمثوبة، وحض على الصَّدَقَة، وفِيء قَضَاء الله وَقدره بعد الْخيرَة. فحفظ النَّاس كَلَامه، ونسوا مَا قَالَ غَيره .وَكَانَ يُقَال :بمرارة السقم تُوجد حلاوة الصِّحَّة .وَقَالَ بعض الْعلمَاء البلغاء :رب مرض يكون تمحيصاً لَا تنغيصاً، وتذكيراً لَا تنكيراً، وأدباً لَا غضبا . وَقَالَ ابْن المعتز :قلت لبَعض فقهائنا، وَأَنا مَرِيض وَقد سَأَلَنِي عَائِد بِحَضْرَتِهِ عَن حَالي :أَترَانِي إِن قلت أَنا فِي عَافِيَة كَاذِبًا؟ فَقَالَ :لَا، إِذا أعلك الله فِي جسمك، فقد أصحك من عيوبك.تَحْسِين الْمَوْتفِي الحَدِيث الْمَرْفُوع :الْمَوْت رَاحَة لكل حد .وَقَالَ بعض السّلف :مَا من أحد إِلَّا وَالْمَوْت خير لَهُ من الْحَيَاة، لِأَنَّهُ إِذا كَانَ محسناً فَالله تَعَالَى يَقُول " :وَمَا عِنْد الله خير وَأبقى" ، وَإِن كَانَ مسيئاً فَإِن الله سُبْحَانَكَ يَقُول " :إِنَّمَا نملي لَهُم ليزدادوا إِثْمًا [17]، وفي ذات المعنى ذهب الصولي في كتاب العيادة، بأنّ البيت الشعري المذكور آنفًا كناية عن الغنى

لم يتوقّف الشعراء العرب عند المرض بحدّه المفسِد للصحة، بل ذهبوا فيه مذاهب شتى كعادتهم، حتى أصبح مطلبًا جماليًّا. يذكر السّراج في كتابه "مصارع العشاق" بأنّ أشهر بيت لجرير في العشق كان على الشكل التالي:

إنّ العيون التي في طرفها مرضٌ قتلننا ثمُّ لم يُحيين قتلانا[18].

بالطبع، لم يقصد جرير المرض بالمعنى الطبي، بل إنّ صفة العيون الحوراء الناعسة الفاترة التي تفتك بالعشاق تسمح بتشبيهها بالعين المريضة لضعفها، لكن هي في المقابل كالمرض، وتأثيرها كبير[19].

ينقل الكاتب دافيد لوبروطو قول غوستافسون:الجنة لا يمكن أن تكون إلا بعد الألم،غير أن هذا يعني أننا طالما لا نعيش الألم فإننا نحيا في الجنة،ونحن لسنا على علم بذلك.[20]

اشتبك الأدب مع المرض والأوبئة في تراثنا العربي، فلم يترك الأدب المرض والوباء على مظانهما السيئة، بل ذهب في تجميلهما بالتشبيهات والاستعارات وحسن الأسلوب والعرض، وكأنّ الأدب دواء يخفّف من وطأة المرض على المريض، فيغيّر من هول الوباء، بل أصبح مصدر إبداع والألم مثله مثل باقي الادراكات الحسية، ليس تسجيلا لمعطى جسماني، وإنما هو تأويل وترجمة في عبارات حميمية لتشوه قاس للذات، وإنه تظاهر محسوس، وخاضع للقياس مندمج في شكل دلالات وحدة معينة.. نرى فيها تعانق السد والمعنى.[21]

وقد لاحظنا من خلال الشواهد حضور التجربة الجسدية، وهي تترجم نفسها في لغة ثقافية عبر كل العصور وبكل الأشكال الإبداعية،حيث تحولت كل حالات النكد والألم إلى صور فنية وتمس كل الفئات ولا تدرك دوما باعتبارها تستحق الاهتمام[22]

ويورد العدوي إفادته بالقول إنه إذا "دققنا في ما يتداوله الناس هذه الأيام على وسائل التواصل الاجتماعي لن نلحظ كبير تغير بين ذهنيات الناس اليوم وبين نظرائهم الذين عاشوا في القرون الوسطى"

وأفاد الكاتب بأن الأعمال المتعلقة بالوباء في منطقة الشرق الأوسط ليست مجرد أدب خيالي؛ إذ تتجاوز الأعمال الفنية والانطباعية لتشمل أيضًا إرشادات النظافة وكتب السفر والأحاديث، وعلاوة على ذلك، قدمت أعمال كاتب القرن التاسع ابن أبي الدنيا مع الأعمال التي كتبها ابن حجر العسقلاني إرشادات حول كيفية مكافحة المرض،ومن مشاركة المبدع لامته في هذه الضائقة يقول الشاعر

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزِّبَعْرَى فِي يَوْمِ أُحُدٍ....:

يا غرابَ البَينِ أَسمَعتَ فَقُل

إِنَّما تَنطِقُ شَيئاً قَد فُعِل

إِنَّ لِلخَيرِ وَلِلشَّرِّ مَدىً

وَكِلا ذَلِكَ وَجهٌ وَقبل

وَالعَطياتُ خِساسٌ بَينَهُم

وَسَواءٌ قَبرُ مُثرٍ وَمُقِل

كُلُّ عَيشٍ وَنَعيمٍ زائِلٌ

وَبَناتُ الدَهرِ يَلعَبنَ بِكُل

أَبلِغا حسّانَ عَنّى آيَةً

فَقَريضُ الشِعرِ يِشفى ذا الغُلَل

كَم تَرى بِالجَرِّ مِن جُمجُمَةٍ

وَأَكُفٍّ قَد أُترّت وَرِجِل[23]

تستحضر نازك الملائكة في قصيدتها صورا حية لعربات تحمل جثثا وللصمت الذي خيّم على الشوارع المصرية، كما تستخدم عبارات عامية للمرض، وتقول:

في شخص الكوليرا القاسي ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ

لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ

حتّى حَفّارُ القبر ثَوَى لم يبقَ نَصِيرْ

الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ

الميّتُ من سيؤبّنُهُ لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيرْ

الطفلُ بلا أمٍّ وأبٍ يبكي من قلبٍ ملتهِبِ

وغدًا لا شكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ[24]

وأورد الكاتب أن أصل العدوى لم يثبت أبدا، إلا أن العديد من المصريين يعتقدون أنه انتقل إليهم من قبل الجنود الإنجليز العائدين من الهند لمصر، التي كانت في ذلك الوقت مستعمرة بريطانية،

وقد أشاد النقاد بأسلوبها في ذلك الوقت باعتباره من أول أعمال الشعر الحر بدلا من القصيدة التقليدية، وفتحت القصيدة فصلا جديدا من الشعر العربي وألهمت موجة جديدة من الشعراء العرب لتجربة أشكال مختلفة من الشعر. وخلال التسعينيات، انتقلت الملائكة إلى القاهرة حيث أمضت سنواتها الأخيرة.[23]

أوضح الكاتب أن التصور الشعبي للأوبئة ركز على تفشي الأمراض مثل الموت الأسود في العصور الوسطى أو تفشي الإنفلونزا ما بين 1917-1920، التي أُطلق عليها اسم "الإنفلونزا الإسبانية".

يروي كتاب "عشر أعوام في بلاط طرابلس" لريتشارد تولي* ، القنصل البريطاني في طرابلس الغرب منذ عام 1783 قصة الطاعون الذي أصاب المدينة الساحلية في عام 1793.

كتب تولي كيف كان القش المحترق يستخدم لتطهير المنازل، إلى جانب ما يمكن أن نعترف به الآن على أنه تباعد اجتماعي. وكان الوضع أيضا قاسيا في تونس، حيث وصل الطاعون إلى مدينة صفاقس عام 1784، و قتل نحو 15 ألف شخص، وحصل ذلك في مدينة ساحلية يبلغ عدد سكانها 30 ألفا، أي ضعف مدينة طرابلس.[25]

وأضاف الكاتب أن صفاقس أُصيبت سابقا بالطاعون عام 1622 ومرة أخرى عام 1688، وبعد قرن قضى الوباء على العديد من نخبة الطبقة الحاكمة، بما في ذلك المسؤولين والسياسيين والشعراء، وبدأ الوباء عندما وصل تجار البحر بعد هروبهم من الطاعون في الإسكندرية، ورغم منعهم من دخول صفاقس لكن بعض البحارة تمكنوا من خرق هذا الحظر.[26]
وكتب ابن الوردي، الذي عاش في حلب ودمشق وبلاد الشام، واصفا "الموت الأسود" الذي اجتاح العالم خلال منتصف القرن الرابع عشر من آسيا إلى الشرق الأوسط ثم إلى أوروبا.

ويشار إلى أن رسالة ابن الوردي في الطاعون، والتي تنتمي إلى أدب المقامات، أيضا، تعد بحسب المحققين والمؤرخين، وثيقة عن مظاهر الطاعون وأشكال الإصابة به، في تلك المرحلة، كما أنها تعد تصويراً دقيقاً لما مرت به المنطقة، بعدما طُعنت بالطاعون، حيث أكد ابن الوردي، في رسالته، أن الطاعون ضربها 15 سنة متواصلة، وهي مدة وباء، يمكن لها أن تفني شعوبا بأكملها، وهو تعبير استعمله الإخباريون العرب، عن طواعين الشام وما تركته بأهلها الذين كادوا يفنون، بسببه

وقال ابن الوردي في رسالته عن الطاعون، إنه "زائر" منذ 15 سنة، متحدثاً عن الصين التي لم تتمكن من "صون" نفسها منه، وكذلك الهند، وبلاد الأوزبك، وأرض القرم، وقبرص، والقاهرة، والجزائر، والإسكندرية المصرية التي قال فيها بعدما طعنت:

اسكندرية، ذا الوبا
سَبعٌ يمدّ إليك ضَبعهُ
صبراً لقسمته التي تركت
من السبعين سبعه [26]!

وقال إن دمشق في ذلك الطاعون، كانت تخسر كل يوم أكثر من ألف من أبنائها، واستخدم تعبيرا عن الطاعون بأنه "أقلَّ الكثرة" لما حصده من أرواح بشر في دمشق. وبتتبع خط رسالة ابن الوردي في الطاعون، فلم تخل منه مدينة كبرى من فلسطين إلى أقصى الشمال السوري وصولا إلى أرض التّرك، مرورا بمدن وسط سوريا، كحمص وحماة

وصوّر ابن الوردي أحد مظاهر الإصابة بالطاعون، كبصق الدم من فم المصاب، بحسب ما رواه، وشبّه ذلك كما لو أنه العدم ذاته، فيقول: "ومن الأقدار أنه يتتبع الدار، فمتى بصق الواحد منهم دماً، تحقق كلهم عدماً، ثم يسكن الباقين الأجداث، بعد ليلتين أو ثلاث" ويختصر ذلك في بيتين:

سألتُ بارئ النسم في دفع طاعون صدم

فمن أحسّ بلع دم فقد أحسّ بالعدم!

ويستفاد من رسالة ابن الوردي في الطاعون، من عرضه للطريقة التي كان يتداوى بها المطعونون في تلك المرحلة، ويقول إن أعيان أهل حلب، كانوا يطالعون ما تيسر من كتب الطب التي كانت موجودة في ذلك الوقت. ويقول إن الأعيان كانوا يكثرون من أكل النواشف والحوامض، كنوع من العلاج، وقاموا باستعمال الخل والبصل، كمواد تعقيم. ويشار إلى أنهم قللوا في طعامهم من المرَق ومن الفاكهة أيضاً.

تصلح رسالة ابن الوردي، لكتابة مرثاة بشرية عارمة، فهو ينقل صور الجثث وحجمها المهول، بعدما طعن الطاعون المنطقة، ويقول إنك لو شاهدت كثرة النعوش لفررت من المكان، إلا أن المؤلف، تحداه، رغم ذلك، ومات به.

يقول ابن الوردي: "ولو شاهدتَ كثرة النعوش وحملة الموتى، لوليت منهم فراراً ."ولكثرة النعوش وعدد الموتى، فقد أثرى العاملون بالجنائز أيما إثراء، على ما يبدو من رسالته: "فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية!" ولكثرة النعوش التي زادت في رزق الجنائزية، فقد وصلوا إلى نوع من الإشباع، فلم يعودوا يكترثون بالزبائن: "فهم يلهون ويلعبون، ويتقاعدون عن الزبون" وفي كل هذا قال:

اسودّت الشهباءُ في عينيَّ من رممٍ وغش
كادت بنو نعش بها أن يلحقوا ببنات نعش [27]

ولاحتمال التعرض للإصابة بالطاعون، بسبب كثرة ضحاياه وطول مدة مكثه التي كانت 15 عاما كما قال، فقد أصبح الناس، يلجأون مسبقاً، إلى كتابة وصاياهم بالميراث وغيره، والبعض سلفا يودّع جيرانه، ويذهب البعض الآخر للتصالح مع عدو له أو خصم، وآخرون يتوسعون في الإنفاق، فيما قام بعض الأعيان بتحرير غلمانهم، بل إن بعض التجار زاد في دقة ميزانه، ثم ينتهي قائلا:

ألا إن هذا الوبا قد سبا
وقد كان يرسل طوفانه
فلا عاصم اليوم من أمره
سوى رحمة الله سبحانه

ومما جاء في خاتمة رسالته في الطاعون: "اللهمّ إنّا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون، أن ترفع عنّا الوباء والطاعون"

ورغم قلة القصائد الشعرية والأعمال الأدبية التي تتناول الطاعون والوباء في عصر صدر الإسلام، فإن الأحاديث النبوية كانت حاضرة بقوة بين أبناء ذلك العصر.

وفي عام 639، انتشر الطاعون في بلاد الشام وأدى إلى مقتل العديد من الصحابة، ففي قرية "عمواس" الفلسطينية الواقعة بين مدينتي القدس والرملة توفي حوالي 25 ألف شخص في وباء عمواس، بمن فيهم

أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وشُرَحبيل بن حسَنة وغيرهم، مما دفع علماء وأدباء مسلمين إلى الكتابة عن الطاعون وكيفية الوقاية منه.

ومن الأحاديث النبوية التي استشهد بها على نطاق واسع في كتب الأوبئة، قول النبي عليه الصلاة والسلام "إذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه"، وفي حديث آخر رواه البخاري في عن عائشة رضي الله قالت سألتُ رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرني أنه "عذاب يبعثه الله على من يشاء، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحدٍ يقعُ الطاعونُ فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر شهيد".[28]

الطاعون والشعر.. تأملات علي باكثير*

وفي بداية القرن العشرين، كتب الشاعر المصري من أصل حضرمي علي أحمد باكثير (1907 . 1969) عدة قصائد ومقطوعات عن الحمى، منها: "في حال مرض"، "تضرع على فراش الألم"، ألمت بي الحمى"، "دعيني أيها الحمى"، "الروح الحنون "

دعيني أيها الحمى أجيبُ أخاً ثغر الزمان بـه شنيبُ

وما أدري وقد أوهنت جسمي أأخطئ في مقالي أم أصيب

سماء الفكر إن تظلم بليل فشمس الشعر يلحقها المغيب

وبين الجسم والفكر ارتباط إذا ما طاب ذاك فذا يطيب

ولكني سأقدح زند فكري إلى أن يستبين لـه لهيب

لأمدح من حوى غرر المعالي بعيد خيالها منه قريب[29]

فتلك الموروثات الأدبية لا تعد خيالية أو فنية فحسب؛ بل هي أعمال انطباعية وثقت أحداثاً تاريخية مؤلمة حصدت آلاف الأرواح، وظهرت بعض التعليمات التي غيرت من أسلوب حياة الشعوب فيما يتعلق بالنظافة والتنقل، إلى جانب الأحاديث النبوية التي تدور في هذا الفلك.

- ترك وباء الطاعون أثره، في المصنفات العربية القديمة، وأصبح جزءاً من تراجم المؤلفين والشعراء والأدباء، بسبب انتشاره الواسع، سابقا، في المنطقة العربية. فلا يكاد كتاب في التراجم أو تاريخ الأدب العربي، يخلو من إشارة إلى ذلك الوباء، كمتسبب في موت هذا الأديب والمصنّف أو ذلك الشاعر

وتعود أشهر مأساة حلّت بشاعر عربي تسبب بها، الطاعون، إلى الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام واعتنقه، أبي ذؤيب الهذلي، خويلد بن خالد، حيث قتل الطاعونُ خمسة من أولاده، بسنة واحدة، ورثاهم بقصيدة مشهورة، تبدأ بـ:

أَمِنَ المنون ورَيبها تتوجّع؟

والدهر ليس بمعتب من يجزع

فأجبتها: أمّا لجسمي إنه

أودى بنيَّ من البلاد فودَّعوا

أودى بنيّ فأعقبوني حسرةً

بعد الرقاد وعبرة ما تقلع [30]

وكان الطاعون سبباً في موت أبي أسود الدؤلي، ظالم بن عمرو، أحد علماء العربية القدامى، ويقول عنه ياقوت الحموي في معجمه، إنه مات مصابا بالطاعون الجارف، سنة 69 هجرية

ومن غرائب ما تركه الطاعون من مآس، أنه قتل مؤلفين عرباً كتبوا في الطاعون، من مثل تاج الدين عبد الوهاب السبكي، المتوفى سنة 771 هـ والذي ألف كتاب (جزء في الطاعون) ثم مات فيه

وشهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني، المتوفى سنة 776 هـ، الذي وضع كتاب (الطب المسنون في دفع الطاعون) ثم قتله الوباء الذي ألّف فيه،ومنه ندرك أن

قليلا من الشعراء هم الذين يكتبون عن لحظات الفرح والمرح والسعادة والسرور التي تمر بهم في حياتهم، وكثيرون من الشعراء هم الذين يلجأون إلى أقلامهم في حالات الهم والحزن والألم والأسى والمرض والاحتياج والعوز، لذا فقد كثرت قصائد الحزن والألم والوحدة والغربة والمرض والعلة في الشعر العربي على امتداد عصوره المختلفة.

وانتقلت هذه العدوى إلى أغانينا المعاصرة فأصبحت أغاني الهجر والسهر والأرق والفراق والقسوة والخوف والدموع والأنين والنيران والأحزان ، هي السمة الغالبة على الإبداع وتلا قح الأدب مع الوباء

ويبدو أن الإنسان العربي جُبِلَ على التغني بحزنه والكتابة عنه وإشهاره في وجوه الآخرين، أما لحظات الفرح والسعادة فإنه في الغالب يمارسها عن طريق المعايشة، ولا يلجأ، في معظم الأحيان، إلى قلمه للتعبير عنها. ولو كان الشاعر العربي يسجل لحظات فرحه مثلما يسجل لحظات حزنه ومرضه وخوفه لوصل إلينا كم لا بأس به من القصائد التي ترصد حالة الإنسان في مواجهة الخبر السعيد، أو ترصد أحاسيسه الدفينة التي تنطلق من إسارها لحظة السعادة والسرور والبهجة والانطلاق والحبور.

ويبدو أن لحظات الفرح والسعادة يغلب عليها الطابع الجماعي، فأغاني وقصائد الأفراح على سبيل المثال تعد أغاني وقصائد جماعية، أو أنها تغنى وتنشد في وجود مجموعة من البشر يحتفلون بمناسبة سعيدة أو سارة، أما أغاني وقصائد الحزن والمرض

والأسى والألم، فإنها، في الغالب، أغان وقصائد فردية يكتوي بنارها الشاعر، ثم يسكبها على الورق خوفا من أن تحرقه، وتأتي على البقية الباقية من حياته الحزينة.

إن مرض الحمى يعد من أكثر الأمراض التي يصاب بها الشعراء. إنهم بالتأكيد يصابون. مثل جميع الناس بأمراض أخرى كذلك، ولكنهم أمام الحمى يجيدون التعبير عنها والكتابة فيها.

قائمة المصادروالمراجع:

1- الزبيدي محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس *مِنْ جَوَاهِرِ القَامُوس* ت:إبراهيم الترزي ،ج 2 - ط 1984 .

2- امرؤ القيس، جندب بن حُجر، ديوان شعر، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوى، بيروت، لبنان، دار المعرفة، 1425هـ/2004م.

3- امرؤ القيس، جندب بن حُجر، ديوان شعر، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوى، بيروت، لبنان، دار المعرفة، 1425هـ/2004م.

4- امرؤ القيس، جندب بن حُجر، ديوان شعر، اعتنى به وشرحه: عبد الرحمن المصطاوى، بيروت، لبنان، دار المعرفة، 1425هـ/2004م.

5- عنترة بن شداد،الديوان ،تحقيق ودراسة سعيد المولوي ،ط 1: ار النشر، مكتبة لسان العرب 1964

6- بشار بن برد: *ديوان شعر بشار بن برد* -جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي ، دار الثقافة ، بيروت ، 1981 م .

7- ابن حزم الأندلسي: *طوق الحمامة* في الأُلفَةِ والأُلَّا ف. الناشر مؤسسة هنداوي. بتاريخ 2017 / 1

8- المتنبي أبو الطيب شرح الواحدي *المحقق: د. ياسين الأيوبي / د. قصي الحسين* ;عدد الأجزاء: خمس مجلدات جمعت في واحد; الناشر: دار الرائد العربي; سنة النشر: الطبعة الأولى 1419هـ.

9- غريتش إي هند رسن: التاريخ الثقافي للقباحة، تر: رشا صادق، دار المدى ط1 -2020.

10- الصاحب بن عباد،ديوان شعر،شرحه وحققه وقدم له:إبراهيم شمس الدين،د/ مؤسسة الاعلمي للمطبوعات- بيروت - ط1-2001.

11- الفرزدق همام ابوفراس بن غالب،شرح الديوان : عبد الله إسماعيل الصاوي،دار النشر:المكتبة التجارية مصر ط1، 1936.

12- الخوارزمي أبو بكر محمد بن العباس ديوان شعره ،ت: حامد صدقي ،دار النشر: المكتبة الشاملة طهران ط1، 1997

13- سوزان سوسنتاغ: المرض كاستعارة ،تر: حسين الشنوفي ،د النشر دار المدى ط1،.2001

14- ابن الوردي ، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفَّر المعرّي الكِندي (ت 749هـ،تح:فوزي الهيب،د ن:القلم الكويت ط1: / 1986

15- ابن الوردي ، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفَّر المعرّي الكِندي (ت 749هـ،تح:فوزي الهيب،د ن:القلم الكويت ط1: 1986/

16- ياقوت الحموي، معجم الأدباء وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب،ت،احسان عباس ج3-ططط1//1993*د ن:الغرب الإسلامي،بيروت لبنان 338

17- الثعالبي أبو منصور:تحسين القبيح وتقبيح الحسن،تح:نبيل عبد الرحمان حياوي،الناشر دار الأرقم

بيروت/لبنان،دون طبعة ص 34.

18- جرير شرح الديوان محمد بن حبيب،تح:نعمان محمد أمين طه،ط1:د/ن دار المعارف القاهرة ج.م.ع

19- السراج القارئ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسن،مصارع العشاق م/2،د ن:صادر بيروت.

20- دافيد لوبروطون.،تجربة الألم،تر:فريد الزاهي /د،ن توبقال للنشر المغرب،ط 1،،2018

21- دافيد لوبروطون.،تجربة الألم،تر:فريد الزاهي /د،ن توبقال للنشر المغرب،ط1،،2018 دافيد لوبروطون.،تجربة الألم،تر:فريد الزاهي /د،ن توبقال للنشر المغرب،ط1،،2018

22- دافيد لوبروطون.،تجربة الألم،تر:فريد الزاهي /د،ن توبقال للنشر المغرب،ط1،،2018

23-مالك بن الريب، ديوان شعر، تحقيق الدكتور نورى حمودى القيسى، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس عشر ، الجزء الأول.

24- نازك الملائكة: ديوان شعر* قصيدة الكوليرا:دار العودة بيروت ط1997،1

25- ريتشارد توللي :آنسة توللي،عشرة أعوام في بلاط طرابلس(1783-1793):تر:عبد الجليل الطاهر،دن ليبيا للنشر والتوزيع1967

26- ريتشارد توللي: آنسة توللي،عشرة أعوام في بلاط طرابلس(1783-1793):تر:عبد الجليل الطاهر،د/ن ليبيا للنشر والتوزيع1967

27- ابن الوردي ، زين الدين أبو حفص عمر بن المظفَّر المعرّي الكِندي (ت 749هـ)،ديوان شعر تح:فوزي الهيب،د/ ن:القلم الكويت ط1: /.1986

28- صحيح البخاري |**الصفحة أو الرقم** 5734 : **خلاصة حكم المحدث]** : **صحيح** | **[التخريج** : أخرجه أحمد (24358)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (7485) .

29- باكثير أحمد،ديوان شعر:أزهار الربى في شعر الصبا/تح:محمد أبو بكر حميد،الدار اليمنية للنشر والتوزيع،ط1-1987 ص 98-99.

30- أبو ذؤيب الهذلى، خالد بن خويلد، ديوان شعر،شرحه وقدم له ووضع فهارسه: سوهام المصرى.عنى بمراجعته وقدم له: الدكتور ياسين الأيوبى. الطبعة الأولى، بيروت ودمشق وعمان، المكتب الإسلامى- 1419هـ-1998م

31 - ابن حجر العسقلانى،أحمد بن على بن حجر العسقلانى،بذل الماعون فى فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب، الرياض، دار العاصمة.

32- ديوان الجواهرى، محمد مهدى الجواهرى، جمعه وحققه وأشرف على طبعه دكتور إبراهيم السامرائى ودكتور مهدى المخزومى ودكتور على جواد الطاهر ورشيد بكناش.بغداد، العراق، مطبعة الأديب البغدادية، 1973، الجزء الثانى .

33- ديوان المعلم نقولا الترك، نقولا الاسطمبولى، نقولا بن يوسف الترك، ضبط نصوصه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد إفرام البستانى، لبنان، بيروت، وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، مديرية الآثار، 1949.

34- ديوان خطب ابن نباتة، عبد الرحيم بن محمد بن نباتة، ، تحقيق ياسر محمد المقداد، الكويت، مجلة الوعى الإسلامى1433هـ، 2012م.

35- ديوان شعر، على الدرويش، نسخة قديمة غير مطبوعة، وجدتها مصورة على شبكة الإنترنت، وقفية الأمير غازى للفكر القرآنى.

36- رسالة "النبا عن الوبا"،رائد عبد الرحيم، لزين الدين بن الوردى ت749هـ،دراسة نقدية.مجلة جامعة النجاح للأبحاث(العلوم الإنسانية) المجلد الرابع والعشرين(5)، 2010.

37- شرح ديوان المتنبى، عبد الرحمن البرقوقى، لبنان، بيروت، دار الكتاب العربى ، 1407هـ، 1986م، الجزء الرابع.

38- لويس شيخو، تاريخ الآداب العربية، الطبعة الثانية، بيروت،1934م.

39- ما رواه الواعون فى أخبار الطعون، الإمام السيوطى، حققه محمد على الباز،ونشرته دار القلم بدمشق سنة 1418هـ

40- مجير الدين الحنبلى العليمى، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان- مكتبة دنديس - 1420هـ - 1999م.

41- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، 1414 – 1993.

42- المقرى، أحمد بن محمد المقرى التلمسانى، شهاب الدين، أزهار الرياض فى أخبار عياض للمقرى، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين المملكة المغربية ودولة الإمارات المتحدة.